PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(12): 1477-1486
ISSN: 1553-6939

Islamic Philosophy and Universality – Ikhwan al-Safa - As Example

Dr. Djazouli Amina[1]
[1]Saida University (Algeria).
The E-mail Author: amina.djazouli@univ-saida.dz
Received: 06/2024 Published: 11/2024

Abstract:
One of the most important key features that distinguished Islamic philosophy is its universal and holistic dimension, which stems from the general goals and purposes upon which Islamic law is based. It is directed towards the whole rather than just some segments of society, and the philosophical models it has known confirm this. The Ikhwan al-Safa (Brethren of Purity) is among the philosophical groups that carved out its distinctive path in the fields of philosophical knowledge. Despite the secrecy surrounding the names that founded this philosophical sect, it was more comprehensive in terms of its philosophy and the universal system it aspired to achieve.
Keywords: Ikhwan al-Safa, Islamic philosophy, universality, holism.

الفلسفة الإسلامية والكونية ـإخوان الصا أنموذجاـ

د. جازولي أمينة[1]
[1]جامعة سعيدة (الجزائر).

الملخص:
من أهم المعالم الرئيسة التي ميزت الفلسفة الإسلامية البعد الكوني والشمولي الذي يعود الى الأهداف والمقاصد العامة التي بنيت عليها الشريعة الإسلامية، فهي موجهة نحو الكل وليس البعض من الفئات، والنماذج الفلسفية التي عرفتها تثبت ذلك، وإخوان الصفا من بين الجماعات الفلسفية التي خطت طريقها المميز في حقول المعرفة الفلسفية، ورغم السرية التي لفت الأسماء التي أسست هذه الفرقة الفلسفية إلا أتنها كانت أكثر شمولية من حيث فلسفتها ومنظومتها الكونية التي كانت تروم إليها.
الكلمات المفتاحية: إخوان الصفا، الفلسفة الإسلامية، العالمية، الشمولية.

مدخل:

تكشف القراءة الأوّلية للعلم من خلال تاريخه أنّ البحث العلمي في مستوى الفرد عاجز عن بلوغ الحقيقة، والمؤشِّر الوحيد الذي يكفل لعملية البحث النجاح هو العمل في إطار جماعي، فتاريخ الفلسفة على سبيل المثال يُظهر محدودية الأنساق الفلسفية، ونسبيتها في إدراك الحقيقة، وهو المأخذ الرئيس الذي اعتمدته المدرسة الريبية في إثبات مسألة استحالة الإنسان الوصول إلى الحقيقة الموضوعية، والذي يصطلح عليه رواد المدرسة بحجة تناقض الفلاسفة فيما بينهم.

أما إذا غيّرنا حقل الرؤية من الفلسفة إلى العلم لوجدنا اختلافا كثيرا بين الحقلين، فتاريخ العلم يكشف عن سلسلة من التراكمات المعرفية التي حقّقها العلم عبر تاريخه، ساهمت في تقليص مساحة الجهل عند الإنسان في مستوى الطبيعة الفيزيائية، والحية، والاتصال يبقى قائما بين العلماء، فالرباطة التي تجمع بين الرياضيات والعلوم التجريبية لا ينكرها إلا معتوه، فالرياضيات على حد تعبير البرت اينشتين [Albert Einstein]هي العلم المتعالي في طبيعته عن عالم التجربة، ولكنه ينطبق بشكل غريب عليه، وهذا التكامل بين العلوم مفقود في عالم الفلسفة، لذا نجد تقدُّما على مستوى النتائج في العلم، وسكونية مخيفة في عالم الفلسفة.

والملمح الرئيس الذي سنتوقف عنده في تاريخ العلم أو الفلسفة هو العمل الجماعي، أو المؤسّساتي، فالبحث الحقّ، يشترط العمل في ظروف جماعية، وأخلاقية، لأن إدراك الحقيقة قضية الجميع من دون استثناء، وكل تخلُّف في معرفتها، تتحمّل البشرية جميعا مسؤولية نتائجه، وهذا ما نلحظه في التغيُّرات الايكولوجية التي تعرفها الأرض.. فالكوارث الطبيعية لا تميّز بين رضيع، وشيخ كبير، فالكل أمام قوانين الطبيعة كائن وشيء.

أما الباعث الآخر الذي حفّزنا على دراسة المسألة فهو انبهار المثقّفين العرب بالمدارس الغربية، حيث أصبحت نموذجاً وجوبياً، ومشروطاً على كل باحث في الحقل الإنساني أن تكون المدرسة الغربية بروادها نموذجاً، وقدوة يحتذى به، وإلاّ يكون الباحث معرّضاً لسلب صفة المثقف، والنخبوي عنه، ويكون إمّعة رجعية.. في حين أن تاريخنا العلمي، والمعرفي غني بكثير من المدارس الفكرية، مدارس صنّفت في أطر مؤدلجة، تستمد روحها من المعتقد الديني ممّا دفع المفكرين العرب إلى البحث عن نموذج خارج الثقافة العربية والإسلامية.. وستكون جماعة إخوان الصفا من خلال نظامها الأخلاقي، الذي تسيّر به المدرسة عينة بحثنا.

إخوان الصفا والتأسيس للمدرسة الفلسفية:

المدرسة الفلسفية مؤسّسة معرفية بالأصل، تضع الحقيقة مطلبا لها، وترتبط لحظة ميلادها بشخصية أو بمجموعة من المفكّرين، تهتّم بمسائل وإشكالات عقلية أو نقلية محددة، قد تكون وليدة خلافات مذهبية داخل المعتقد الديني، أو نتاج انقسامات سياسية، وصراعات إيديولوجية، وتخضع المدرسة لمقاييس تكون أخلاقية في المبدأ، وتتحوّل بعد ذلك إلى نسق ايديولوجي يلغي كل إمكانية في قبول المختلف، والمدارس الفكرية في الغرب نموذج في ذلك، فالشرقي يبقى ذلك الكائن الذي تتقاطع فيه التناقضات.

الإخوان مؤسّسة، ومدرسة فلسفية، تألفت في بغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة، وإذا قرأنا الاسم الذي ارتضته المدرسة لنفسها، لوجدنا المنحى الأخلاقي في الاسم، فالأخلاقية في المبدأ الذي أقامت المدرسة أسسها عليه يبدو ظاهرا، في فكرة الأخوة، كما أنّ القصد الغائي من التأسيس يكشف عن الأمل

اليوتوبي في تعاليم المدرسة، فالمدرسة تعلن عن إعادة بناء مفهوم الأخوة، فالأخوة لا تقوم على مؤشّر الدين والملّة، ولا على المذهبية، وعلى الإثنية العرقية، والإيمان في الآي الكريم لا يرتبط دلاليا مع الإسلام، بل يعبّر عن مستوى من الرقّي في الإسلام، يقول تعالى:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"[1]، والآية التالية تكشف عن المعيار الفاصل بين دلالة الإيمان، ودلالة الإسلام، يقول تعالى :" قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [2] .

وسنرى من خلال المسلمات القاعدية التي بنت المدرسة عليها فلسفتها أهمية فلسفة الأخوة، اذا تعرضت إلى مسألة الصداقة، حيث تجاوزت المقومات الثقافية والعرقية في بناء الصداقة، أما كلمة الصفا، فمضامينها الأخلاقية كثيرة، ومتعدّدة، ومنها الصفاء الذي يلتقي مع الطهارة، والنقاء، ولا تقتصر الطهارة على الشقّ المادي، بل يكون الجانب المعنوي هو المطلوب في قيام الصداقة..ومن الإشارات التي استنطقناها من الكلمة الرابطة التقليدية بين كلمة صوفي، وكلمة حكيم، فـ : صوفيا الكلمة اليونانية تدل على الحكمة، وإذا صحت هذه القراءة، فتكون عبارة إخوان الصفا : إخوان الحكمة، أو محبّي الحكمة، لأن عبارة الحكماء كما يذكر تاريخ الفلسفة أنّها لا تصدق على الفلاسفة بل تتجسّد فقط في الحكيم الذي هو الله العلي العظيم.

حقيقة الجماعة مسألة افتراضية، وكل موقف يبني تصوراته على استنتاجاته الشخصية، قراءة للنصوص أو استقراء للتاريخ أو باعتماد المنهج المقارن قي التعاطي مع النصوص لتاريخية، لذا وجدنا أن الفرضيات التي فسرت بها الشخصية تصنف إلى أربعة: الأولى أنّ جماعة إخوان الصفا تألّفت ببغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة، وقد ذكروا من أعضائها خمسة، وهم شخصيات يتغشّاهم الغموض والشك ـ على حد تعبير موسى الموسوي ـ و هم : محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، وعلي بن هارون الزنجاني، وأبو حامد المهرجاني، وأبو الحسن العوفي، وزيد بن رفاعة"[3]

أما الثانية فهي الفرضية التي نجدها عند الأستاذ عارف تامر في تقديمه لجامعة الجامعة، إذ يورد جملة من الروايات تجعل الأسماء المذكورة سلفاً جد متأخرة بالقياس إلى الأصل الحقيقي للجماعة، يقول في خلاصة المقدمات :" رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء تمثّل الأفكار الإسماعيلية تمام التمثيل، وأنّها ولا جدال من وضع الدعاة الإسماعيليين الذين ذكرنا أسماءهم[4]. وبعد هذا البيان لم يبق أية قيمة تاريخية أو علمية لما ذكره أبو حيان التوحيدي عن زيد بن رفاعة، والبستي ....الذين اعتبرهم التوحيدي وغيره بأنّهم مولفو الرسائل في القرن الرابع الهجري والحقيقة إنّ هؤلاء قد عاشوا في عصر متأخر عن عصر إخوان الصفاء الحقيقيين المؤسسين.

أما الفرضية الثالثة فتعتقد " أن الحكيم المجريطي هو الذي وضع رسائل إخوان الصفا، أو الرسالة الجامعة"[5]، والرابعة تعتقد أن رسائل إخوان الصفا تعود إلى أحد أئمة أهل البيت في العصر العباسي الأول، دون الإقرار بانتسابها إلى أحدهم بدقة.

---

[1] الحجرات .الآية 49
[2] الحجرات الأية: 14
[3] موسى الموسوي، من الكندي إلى ابن رشد، منشورات عويدات.بيروت الطبعة الثالثة 1982 ص : 110
[4] وهم : عبد الله بن حمدان، وعبد الله بن ميمون، وعبد الله بن مبارك، وعبد الله بن سعيد.
[5] محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، 1982 ص : 77

وممّا يؤسف له أن نجد كثيرا من الدراسات التي اهتمت بالبحث في شخصية الجماعة، وفي فلسفتها تعتمد المواقف الاستشراقية في التعاطي مع هؤلاء الفلاسفة، ودليلنا في ذلك، تصنيف الجماعة ضمن الشيعة الغلاة، وهذا ما لمسناه في دراسة الأستاذ حنا الفاخوري، وخليل الجر في كتاب تاريخ الفلسفة العربية،اذا وجدنا اعتماد المستشرق جولد زيهر في بداية البحث المخصص للجماعة، حيث يقول :" ..أحسن جولدزيهر عندما جعل من إخوان الصفا جماعة إسماعيلية لكنه لم يصب عندما رأى في فلسفتهم فلسفة دينية فلم يكن ظهور إخوان الصفا سوى نتيجة طبيعية لتطور الأحوال السياسية .[1]

ويمكننا الاستئناس بنص لمستشرق آخر لملاحظة القصدية المعتمدة من طرف المستشرقين في القدح، والتنفير من رسائل إخوان الصفا، يقول دي بور :" المنطق عند إخوان الصفا، وثيق النسب مع الرياضيات، فكما أن الرياضيات تساعدنا على الانتقال من المحسوسات إلى المعقولات، والمنطق في مكان وسط بين العلم الطبيعي والعلم الإلهي[2].

وعند قراءة النص استذكر النص المشهور للفيلسوف الانجليزي برتراند راسل عندما يقول:لا يوجد خط فاصل بين الرياضيات، والمنطق، تكون الرياضيات على يمينه، والمنطق على يساره، والمؤسف أنّنا نجد المستشرق ينهي تحليله بقوله :" ومنطق الإخوان يبني على مقدمة فورفوريوس وعلى المقولات، وكتاب العبارة، وانالوطيقا لأرسطو، وليس فيه الا قليل من الابتكار، أو هو خلو من الابتكار جملة[3].. وللقارئ الحكم

النظام الداخلي لمدرسة الإخوان: واجتمعوا على القدس والطهارة وهم أهل العدل وأبناء الحمد."[4] إذ توجب عليهم اللقاء دوريا، في مكان خاص، وفي أزمنة خاصة، وموضوع اللقاء يكون في مراجعة النصوص العلمية، يقول محمد لطفي جمعه عنهم:" فرضوا على من كان مثلهم من الجماعات أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة، لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذكّرون فيه علومهم، ويتحاورون فيه أسرارهم، وينبغي أن تكون مذاكرتهم أكثرها في علم النفس، الحسّ، والمحسوس، العقل والمعقول، والنظر، والبحث عن أسرار الكتب الإلهية، والتعاليم النبوية، .. وينبغي أيضا أن يتذكّروا العلوم الرياضية الأربعة ..[5].

خصائص مدرسة إخوان الصفا: القارئ العادي لمدرسة إخوان الصّفا يكتشف المنحى العلمي للمدرسة، فهي ليست مؤسّسة دينية، لان المعروف عن هذا النوع من المؤسّسات التعصب لايديولوجية معينة ولمنهج محدّد، فالقواعد التنظيمية للجماعة تثبت موضوعية المدرسة، إذ توصي طلبة العلم، ومريدي الصفاء بعدم معاداة العلوم:" وبالجملة ينبغي لهم أن لا يعادوا علما من العلوم، أو يهجروا كتابا من الكتب، ولا يتعصبوا لمذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها." فهم كما يقول موسى الموسوي:" لا يعادون دينا من الأديان ويتكلمون عن كل دين وكأنهم

[1] حنا الفاخوري ،خليل الجر ،تاريخ الفلسفة العربية ،مؤسسة بدران،بيروت 1966 صفحة 162 د.ط.
[2] ت.ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد ابوريده الدار التونسية للنشر 1980 ص 176
[3] المرجع نفسه، ص 176
[4] ابوحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج 2 ص 87
[5] محمد لطفي جمعه، تاريخ فلاسفة الإسلام. المكتبة العلمية .ص : 258

يؤمنون به مما يؤدي بنا إلى اليقين أن هذه الجماعة كانت تريد الجمع بين الأديان السماوية، أو كان أعضاءها من جماعات مختلفة الأديان."[1]

فلسفة إخوان الصفا: يقول عارف تامر في تقديمه لكتاب جامعة الجامعة :"رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء هي أغزر مادة فلسفية وأقوم حجّة عقلية وأثمن تحفة فكرية ضمّت بين دفتيها البديع والإيجاز والحكمة والفنون من فلك، وعدد، وموسيقى، وفن، وهندسة ورياضيات، وطب، وأدب وتربية وعلوم أخرى أنتجها العقل الإسلامي في عصر مبكر من عصور الإسلام، وفي فترة كانت فيها الفلسفة ضرباً من الكفر والإلحاد.[2]

القارئ لهذه العبارة لا يشكّ بالإقرار الصريح بعظمة، وجلالة قدر هذه المدرسة الفكرية التي تأسّست على يد هؤلاء العظماء، ولكن الأحكام، والتوصيفات التي نجدها تتوالى في تقديم الأستاذ تكشف عن تأثُّر المفكِّر بالقرارات الاستشراقية، والتي كان أخطرها، إدراج، وتصنيف الإخوان ضمن دائرة الشيعة المغالية، الإسماعيلية، إذ لاحظنا في التقديم إصرار المؤلف على البحث عن أدلة تثبت إسماعيلية الإخوان، في حين أن الأدلّة التي كان يبحث عنها الكاتب ليست إلا مشتركات تعتقد فيها الشيعة بجميع فرقها، وعلى الأخص الإمامية، ويستحسن القول عند الفكر الديني الشيعي، وعلى سبيل المثال لا الحصر، الاستشهاد الذي استأنس به الأستاذ لبيان وإثبات إسماعيلية الإخوان:" النص الأصلي "..اعلم أيُّها الأخ ...إن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء..وقد ندبنا لكل طائفة منها أحدا من إخواننا ممن ارتضيناه في بصيرته لينون بعنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة ...النص الثاني : " فما من جزيرة في الأرض ولا اقلي مالا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا ويأخذون بذمتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا وينذرون بسنا ويبشرون بأيامنا" وبين النصين يطلب الكاتب من القارئ استنتاج الملمح الاسماعيلي بقوله : ألا يرى معي القارئ أن ما جاء به إخوان الصفا لا يختلف تماما عما ذكره الإمام الفاطمي بكتابه المشهور إلى حسن الأعصم[3]

ولكننا نجد أن التصنيف الذي تعرّضت له المدرسة، ومازالت لحد الآن يثبت مشروعية السرية التي اعتمدتها، فالظلم، والاستيلاب التي كان يرزح تحته النخبة في التاريخ السياسي الإسلامي، ونخصّ بالذكر المعارضة المدنية والدينية التي كانت ترزح تحت وطأة الظلم الممارس من طرف السلطة آنذاك، واعتقد أن إخوان الصفا عينة من هؤلاء، حيث كانت مستضعفة، ولازالت تنتظر من الباحثين الإنصاف، والدليل على ذلك ندرة الدراسات والبحوث العربية في المكتبة العربية والإسلامية حولهم.

ان الإصلاح، والتعبئة الثورية على النظم المستبدّة، ولو فرضنا أن تاريخ الإخوان كان مرتبطا بتاريخ المدرسة النقدية في ألمانيا، لحصل هؤلاء الإخوان على جوائز عالمية تقديرا لعلمهم، ومنتوجهم الفكري، أما في تاريخنا فالعلم والتميز جناية لا تغتفر، ولذا وجدنا من يهمنهم أنهم اسماعيليون،هناك ونعوت القصد منها التجريح ليس إلا.

والنص التالي يكشف بشكل صريح عن رؤية ومشروع المدرسة، :" الشريعة الإسلامية تدنّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتقطيرها إلا بالفلسفة لأنّها حاوية للحكمة

[1] موسى الموسوي، مرجع سابق، ص : 114
[2] إخوان الصفا، جامعة الجامعة، تحقيق عارف تامر، منشورات مكتبة الحياة بيروت1970 ص : 6
[3] اخوان الصفا، جامعة الجامعة، مرجع سابق، ص : 21

الاعتقادية و بالمصلحة الاقتصادية. وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال."[1]

من المؤكّد أنّ الانحراف الذي عرفته الشريعة المحمدية عبر التاريخ من المنعرجات الخطيرة في حياة المجتمع الإسلامي، والذي لازلنا نحصد نتائجه كل يوم، فلا كرامة للمسلم، ولا عرض مقدّس، بل أصبح التفكير في البطون الهم الرئيس في حياة الأمة الإسلامية.

والواقع الراهن نتاج لهذه التغيرات التي شمّرت لها مدرسة إخوان الصفا، اقتداء بسنة الإمام الحسين رضوان الله عليه في كربلاء، الذي خرج طالبا الإصلاح في أمة جدّه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فالفلسفة في نظرهم إذا إنتظمت، وبصيغة أوضح إذا وجّهت توجيها سليما، يحصل الكمال عند الفرد، وفي المدينة، وهذا إن دلّ عن شيء، فإنّما يدلّ على الاستثمار السياسي الذي وقعت فيه الفلسفة على يد المأمون، وخلفاء بني العباس بعد ذلك، وسنحاول عرض توصيفي، لفلسفة إخوان الصفا، وسننهج في ذلك الطرح الكلاسيكي في عرض الأنسقة الفلسفية.

الوجود : الانطولوجيا علم موضوعه الوجود بما هو موجود، وهو الفلسفة الأولى[2]. ويحتمل التعريف تأويلين: العلم بالوجود الأتم، والأكمل والأشرف، صورة الصّور، والمبدأ الأوّل، والمحرّك الّذي لا يتحرّك في رأي أرسطو، فيحصل أنّ موضوع الفلسفة الأولى لا يخرج عن أن يكون موضوعا جزئيّا مخصوصا كسائر العلوم الأخرى، وإن كان موضوعه هو أكمل من مواضيعها كلّها، فمجال الوجود أو الانطولوجيا هو المعرفة بالمبدأ، والعلة الأولى.

الثاني : يُرَادَ به عموم الوجود الّذي هو سَارٍ في الأشياء كلّها، وهذه الأشياء إذا نُظِرَ إليها فيما يخصّها كانت مواضيع علوم جزئيّة تختصّ باختصاصها، وإذا نُظِرَ إليها فيما يعمّها كلّها، كان ما يعمّها هو هذا الموضوع الأوّل لعلم الوجود بما هو موجود، لأنّه علم لا يفحص في مَوْجُودٍ مَوْجُودٍ من جهة ما هو هو، و في ما يعرض له من خواصّ تلزمه بما هو هو، وإنّما ينظر في الموجود من جهة ما هو موجود، أي أنّه إنّما نظره في وجود الشّيء، لا في الشّيء الموجود.

ولمفهوم الوجود معنيان رئيسان مختلفات لدى الفلاسفة المسلمين، إذ يطلق على احدهما المعنى الفعلي والكوني للوجود، وهو يقع في قبال الماهية. ويعبّر عنه بأنه محض التحصل والفعلية، أو انه ليس له في ذاته إلا الحصول والفعلية والظهور، أو الثبوت والتحقق والتشخص.

وفي المقابل يظهر لنا معنى آخر مختلف، إذ فيه يكون الوجود عين الذات المتحققة وليس الفعل والكون، وبه تتحقق صورة شبحية الماهية وحكايتها له، فصورتنا الذهنية للذات المتشخِّصة في الخارج تحاكي ما هي عليه، وبالتالي فانّ الماهيّة الذهنية تطابق ما عليه الوجود الخارجي.

وبهذا المعنى تكون الماهية في الخارج هي عين الوجود لا غير، خلافاً للمعنى الأول، فالنار كصورة ذهنية مثلاً هي ماهية محضة، لكنها كحقيقة خارجية تكون ماهية متشخِّصة، فالصورة والحقيقة الخارجية كلتاهما يمكن تسميتهما بالماهية، سوى إنها في الخارج لها آثارها الفعلية بخلاف ما هي عليه في الذهن، لهذا يطلق عليها الوجود في الخارج دون الذهن، باعتبارها غير موجودة إلا بحسب الوجود الذهني، وهو نحو من الوجود.

1 محمد لطفي جمعه، تاريخ فلاسفة الإسلام. المكتبة العلمية ص : 253
2 المفهوم الأرسطي

فاعلم يا أخي أن الموجودات كلها نوعان جسماني وروحاني، فالجسماني ما يدرك بالحواس، والروحاني ما يدرك بالعقل، والتصور بالفكر، فأمّا الجسماني فهو على ثلاثة أنواع: منها الأجرام الفلكية، ومنها الأركان الطبيعية، ومنها المولدات الكائنة والروحاني أيضا على ثلاثة أنواع منها الهيولى الأولى الذي هو جوهر بسيط.. قابل لكل صورة، والثاني النفسي التي هي جوهرة بسيطة فعالة علامة، والثالث العقل الذي هو جوهر بسيط مدرك لحقائق الأشياء."[1]

الهيولى والصورة:

الأصل في الوجود هو الجوهر أو الهيولى، والتي يحدّها الحكماء بأنّها جوهر قابل للصورة، والذي يقبل أن يحمل عليه، ولا يقبل أن يحمل على غيره والصورة هي كل نقش، وشكل يقبله الجوهر، فالصورة هي الأعراض اللاحقة بالجوهر، والمقولات العشر عند أرسطو، تعمل على توضيح دلالة الصورة، ويعتقد إخوان الصفا أن الجوهر واحد في الموجودات، والاختلاف يكون على مستوى الصورة فقط، جاء في الرسائل:

"واعلم أن اختلاف الموجودات إنما هو بالصورة لا بالهيولى، وذلك أناّ نجد أشياء كثيرة جوهرها واحد، وصورها مختلفة، مثال ذلك السكِّين، والسيف، والفأس، والمنشار وكل ما يعمل من الحديد من الآلات والأدوات والأواني، فان اختلاف أسمائها من اجل اختلاف صورها، لا من اجل اختلاف جواهرها، لان كلها بالحديد واحد.."[2]

الهيولى كجوهر، وعلة مصدرية لتجليات الوجود، تكون عند إخوان الصفا في أربع صور، وعند الاطلاع على التفصيل الذي يقدمه إخوان الصفا لمستويات الهيولى، يظهر التصنيف الرباعي للعلة عند أرسطو ابتدائيا، فانطولوجية الهيولى في مستوى التشكل، والقابلية للتشكيل هي الملمح الجسمي، وهو ما يصطلح عليه الإخوان في رسالتهم بهيولى الصناعة، فمنه، وفيه تتجلى الصورة، ويميّز إخوان الصفا بين الأجسام، وعالم الطبيعة، حيث نلمس في النوع الثاني من الهيولى، الإشارة إلى العناصر الأربعة التي يعتبرها القدماء أصلا للوجود، والتي هي الماء، والهواء، والنار، والتراب، والذي نلمسه في قولهم:" وذلك أن كل ما تحت فلك القمر من الكائنات أعني النبات والحيوان والمعادن، فمنها تتكون واليها تستحيل عند الفساد" والهيولى الثالثة هي هيولى الكل، أي التقاطع في مشتركات الجسمية، فهي"كلها أجسام وإنما اختلافها من أجل صورها المختلفة"، أماّ الهيولى الأولى فهي جوهر بسيط معقول تتماهى مع الهوية، وعلى قاعدة الاقتضاء، تتمثل في معطى يفترض البعد الكمي، والكيفي، تصبح الهوية أو الهيولى الأولى العلة المصدرية للمعلولات، يقول: "واعلم أن الهيولى على أربعة أنواع، منها هيولى الصناعة، وهيولى الطبيعة، وهيولى الكل، والهيولى الأولى.. وهيولى الصناعة هي كل جسم يعمل منه وفيه الصانع صنعته، كالخشب للنجارين ..وعلى هذا القياس كل صانع لابدّ له من جسم يعمل صنعته منه وفيه، فذلك الجسم هو هيولى الصناعة..وأمّا الهيولى الطبيعية فهي الأركان الأربعة، وأما هيولى الكل فهي الجسم المطلق الذي منه جملة العالم، وأعني الأفلاك والكواكب والأركان والكائنات أجمع لأنها كلها أجسام، وإنّما اختلافها من

[1] إخوان الصفاء، الرسائل ج 3 ص 337
[2] إخوان الصفا، الرسائل، المجلد الثاني، دار صادر بيروت، ص : 6

اجل صورها المختلفة، وإما الهيولى الأولى فهي جوهر بسيط معقول لا يدركه الحسّ، وذلك انه صورة الوجود حسب، وهو الهوية[1].

المعرفة :

الإطلالة الأولى على النص تظهر الربط الذي أقامته المدرسة بين الحياة النفسية، والظاهرة المعرفية، وهو ما يعرف في علم النفي العام بالحياة العقلية في النفس، والتي تمثِّل المستوى الأعلى من الحوادث النفسية، يصف الأستاذ موسى الموسوي أطروحتهم في المعرفة قائلا:" أنّ المعقولات صور روحانية تراها النفس في ذاتها بعد مشاهدتها في الهيولى بطريق الحواس، وان الله جعل الأمور الجسمانية المحسوسة كلها مثالات ودلالات على الأمور الروحانية العقلية وجعل طريق الحواس درجا يرتقي به إلى معرفة الأمور العقلية، فالإحساس هو أوّل العلوم وان كل ما لا تدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيّله الأوهام، وانّ كل ما لا تتخيله الأوهام لا تتصوره العقول[2] ."

علم النفس:

يظهر الاهتمام بمعرفة النفس في المدرسة على رأس المطالب التعليمية، على قاعدة اعتبار معرفة النفس مقدمة لمعرف الرب" من عرف نفسه عرف ربه"، فالعلم بالنفس يعمل على، تهيئة المرء، وتمكينه من امتلاك جملة من الاستعدادات تساعده على الرقي الأخلاقي، والروحي، والجميل في مدرسة الإخوان تمكنه من التمييز بين الحوادث النفسية، والحوادث الروحانية، والذي يحتسبه أي التمييز ببين الروح والنفس الغرب مكسبا معرفيا، وسابقة علمية عنده عندما أقرّ بعلمية النفس، وقرابتها من العلوم التجريبية، حيث نلمس من النص التالي التمييز الذي أسّسه الإخوان لهذه التفرقة، يقول عادل العوا:" ..وقد وجدنا أن للعلوم اللاهوتية في نظرهم خمسة أنواع هي : معرفة الباري، علم الروحانيات، علم النفسانيات، علم السياسة بفروعه الخمسة (السياسة النبوية، السياسة الملوكية، السياسة العامية، السياسة الخاصية، السياسة الذاتية)، علم المعاد وهو معرفة ماهية النشأة الأخرى.."[3]

كما ينبهنا الأستاذ عادل العوا إلى التقسيم الثلاثي الذي يعتمده الغرب في تصنيف الحياة النفسية العامة(علم النفس العام) وهو الحياة الانفعالية، والحياة الفاعلة، والعقلية، ومن المعرف في الحقل النفسي أن الحياة الانفعالية تتأسس على مبدأي اللذة والألم، يقول العوا :" تبدأ دراسة الحياة الانفعالية بنظرية اللذة والألم، والفرح والغم، والسرور، والحزن، وهي تقابل في نظر الإخوان، الراحة والتعب، النافع، والضار، ويستشهد بقولهم إن الإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عدة وجوه.."[4]

وعند تتبع المضامين التي تضمنتها الرسائل في هذا الحقل، نجد كثيرا من المفاهيم النفسية الحديثة من قبيل الحوادث الفعالة، والعقلية، التي تدل على المستوى الأعلى من الحياة النفسية، والعقل عندهم حكومة مسكنها وسط الدماغ، و" قضاياها بين مدركات الحواس ومتخيلات الأوهام فيما يدعي العقلاء بينهم من المنازعات والخصومات في الآراء والديانات والمذاهب، فهي لا تحكم لأحد بين الخصمين

[1] المصدر نفسه، ص : 7
[2] موسى الموسوي، مرجع سابق، ص : 122
[3] عادل العوا، حقيقة إخوان الصفا، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق الطبعة الأولى 1993 ص :170
[4] المرجع نفسه، ص 172

بالصواب ولا بالخطأ إلا بعد ماشهد شاهدان من الحواس الخمس أو نتائج مقدمات جزئية من أوائل العقول[1]"

الأخلاق :

يتميز الطرح الإسلامي عموما للمشكل الأخلاقي، بالبحث في آليات التخليق، أي التربية الأخلاقية، لأن التنظير أو التأسيس للمفاهيم الأخلاقية لا يقدِّم حلولا لمشاكل الواقع الاجتماعي، لذا نلمس النزعة التعليمية في الطرح الذي تتبناه المدرسة، فالأخلاق في رأيهم نوعان مركوزة ومكتسبة، أما المركوزة فهو الذي يولد مع الشخص، والمكتسب وهو الذي يضاف إلى الأخلاق المركوزة في ادوار الحياة المختلفة، وتتقرر الأخلاق المركوزة بثلاثة عوامل رئيسة تأثير الكواكب في الجنين قبل الولادة وأخلاط الجسد ونسبة بعضها إلى بعض، وتأثير الأقاليم البيئة الطبيعية، جاء في الرسائل:" إعلم يا أخي أنّ أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات أحدها من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها والثاني من جهة ترب بلدانهم واختلاف أهويتها والثالث من جهة نشوهم على ديانات آبائهم ومعلميهم ومن يربيهم، والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم ومساقط نطفهم، وهي الأصل وباقيها فروع عليها..[2]"

ينبه إخوان الصفا علماء التربية المحدثين إلى أهمية النظرة الكلية في معرفة شخصية الفرد، حيث تغلب حاليا النظرة التجزيئية للشخصية الإنسانية، والتي ورثناها عن النزعة الغربية في التفكير العلمي، وهي الميل والنزوع إلى التخصص، في حين أن النظرة الموضوعية تفترض النظر إلى جميع العناصر المؤثرة في بناء الشخصية، فالتركيبة البنيوية لعضوية الفرد تتحكم في قرارات الفرد واختياراته، وهذا ما نلمسه عند علماء الطباع أمثال روني لوسين، الذي يقر بان الشخصية نتاج حتمي للطبع، وأن النظر الى دور تربة البلد في التكوين، والتأثير على الشخصية يبدو امرأ مستغربا على الباحث المعاصر، في حين أن أهمية الغذاء في الحفاظ على بنية العضوية، وتوازنها النفسي أمر طبيعي ومسلم به، والغريب أن الباحث لم يطرح السؤال على نفسه من أين ورد علينا هذا الغذاء؟ وفي أي تربة نما؟.. فالتربة التي نستوطنها منها غذاونا، ومنها نحن، فأرض الوطن ليست أم المواطنين بالمجاز بل أيضا في عالم الحقيقة، فتراب عضويتنا من تربتها.

الصداقة :

يمكن القول أن الإنتاج الفكري الذي خلفته مدرسة إخوان الصفا دائرة معارف إنسانية، وليست فقط إسلامية، حيث نجد لهم في كل فن رأياً وموقفاً، قد يلاحظ عليه التقاطع مع فلاسفة الإغريق تارة، ومع فلاسفة الهند تارة أخرى، وفي السياق الديني قد تجد لكل مذهب كلامي، واتجاه ديني حضوراً في رسائل الإخوان، وعلى سبيل المثال قضية الصداقة التي كانت كما يصفها خير الله سعيد :" خليط روحي ممتزج بأخلاقي، عبروا عنه بالمعايشة الأنسية الصادقة، وربطوا هذه الصداقة بالتماثل والامتزاج بنفس واحدة مهما تعددت الأجساد، فهم يرثون بعضهم... فهو تأسيس لقيام مجتمع متآخ يكمل الفرد فيه الجماعة[3].

الدولة:

[1] إخوان الصفا، الرسائل ج4 ص : 427

[2] إخوان الصفا، الرسائل، المجلد الأول، مطبعة نخبة الأخبار بومباي . الهند 1305 هـ ص. ص :39 .40

[3] خير الله سعيد، النظام الداخلي لحركة اخوان الصفا دار كنعان للدراسات، دمشق الطبعة الاولى 1992 ص : 70

التراتبية صفة محايثة للمجتمع الإنساني، والاختلاف القائم بين فئات المجتمع يتضمن حكمة إلهية، لأن الإنسان بمفرده غير قادر على توفير قوت يومه، والاختلاف يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ثم تتعاون جميع الطبقات على إصلاح المجتمع، وحاجة الجماعة إلى ملك مسألة ضرورية لإقامة الدين والأحكام بين الأفراد، والعلاقة بين الدين والدولة لازمة وضرورية.

ومسار الدولة عند إخوان الصفا دوري، فهي تسير تبعا لصيرورة، فلا بقاء لدولة الشر، والتي كان يقصد بها دولة بني العباس كما يرى أغلب الباحثين، فهي إلى زوال، ودولة الحق آتية، وهي دولة الفضلاء أو مجتمع الفضيلة كما يعرف في فلسفة القيم، والتي تتألف من قوم علماء وحكماء وخيار وفضلاء " يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على دين واحد، ثم يعقدون بينهم عهدا وميثاقا ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم في ما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة لا يبتغون سوى وجه الله ورضوانه ولا يبغون جزاء ولا شكورا.[1]

وفي الأخير يمكن القول أن إخوان الصفا مدرسة فلسفية، على قاعدة اعتبار البعد الفلسفي بوتقة كلية لعناصر فكرية متعددة، وتراثهم بتنوعه، وتعدّده تراث الإنسانية ككلّ، واعتقد أن الملمح الكلي والشمولي في اتجاه الإخوان هو الذي وضعها ضحية تصنيفات، وإحكام ا قيمية استثمرها المستشرقون في تغييب العظمة العلمية التي تميز بها إخوان الصفا، والقصد الحقيقي منه هو ضرب نقطة القوة التي امتلكها التاريخ الإسلامي، فهو التاريخ الوحيد الذي يتوسط الحضارات القديمة والحديثة، وفي نفس الوقت يكون وثيقة تأريخية لثقافات الشعوب الغابرة.

[1] اخوان الصفا، الرسائل ج 1 ص : 181